مقدمة الكتاب

بقلم

الدكتور محمد حسين هيكل

هذا كتاب شائق أتحف فيه الدكتور سيد نوفل قراءه بتصوير طريف لتاريخ الأدب العربى . فقد ألف الناس تقسيم هذا الأدب تقسيماً زمنيًّا : إلى أدب جاهلى وأدب إسلامى ، وتقسيم الأدب الإسلامى إلى أدب أموى وأدب عباسى وأدب أندلسى ؛ كما ألفوا — حين الحديث عن موضوعاته — أن يذكروا الحماسة ، والفخر ، والغزل ، والوصف . أما هذا الكتاب فيتحدث عن موضوع جديد فى تاريخ الشعر العربى ، هو شعر الطبيعة ، ويتقصى هذا الموضوع فى العصور المختلفة ، ولا يقسمه من الناحية الزمنية : إلى جاهلى وإسلامى ، وإلى أموى وعباسى وأندلسى ؛ بل يتتبع أطواره بين الأصالة ، والتقليد ، والجمود ، والإحياء ، والانتقال ، والنهضة ، فى الأوساط العربية المختلفة : فى بلاد العرب حين كانت اللغة العربية مما يخص شبه الجزيرة ، وفى العراق والشام ومصر والأندلس بعد أن ضمت الإمبراطوريةُ الإسلامية هذه البلادَ إلى لوائها ، فأسلم أهلها وجعلوا من العربية لغتهم ، ومن الأدب العربى أدبهم .

والحديث عن شعر الطبيعة فى الأدب العربى طريف لا ريب . صحيح أن مؤرخى هذا الأدب قد تعرض بعضهم للوصف فى الشعر العربى ، لكن هذا التعرض لم يعد الإشارات النقدية تتناول اللغة وسلامتها والبيان وبلاغته ، وتستشهد بأمثال متصلة بغير الطبيعة أكثر من اتصالها بالطبيعة ؛ بل إن جمهرة شعر الطبيعة قد بعثرته الدواوين والمجموعات الشعرية فى أبواب الغزل والمدح والحماسة ، وفرقته فى الأغراض المختلفة . أما الطبيعة لذاتها ، وما تركته من أثر فى نفس الشاعر أو الكاتب ، ومبلغ اندماجه فيها أو امتثاله إياها ، وتفسير هذا الشعور وتطوره فى البيئات والعصور — فذلك بحث آخر لم يخصه أحد قبل الدكتور سيد نوفل بعنايته ، ولم يختص به كتاب ما اختص كتابه : «شعر الطبيعة فى الأدب العربى» .

وهو مع ذلك بحث ما أجدره أن يكون أول ما يقف عنده مؤرخ الأدب فى كل اللغات . فالبيئة الطبيعية هى الملهم الأول لكل كاتب وكل شاعر ، بل هى الملهم الأول لكل فن من

الفنون . كذلك كانت ، وكذلك لا تزال ولن تزال . فهذا الراعى الذى يهش على غنمه فى الصحراء ، أو فى المراعى الخضراء ، أو على حافة الغدران – يجد من تقلب ألوان الليل والنهار والشمس والقمر ، ومن أصوات الوحش والطير ، ومن شميم النبات والزهر ما يحرك أصابعه على قيثارته ، أو يحركه إلى الغناء بوحى من هذه البيئة المحيطة به ، ومن مشاعر الغبطة أو الخوف أو الرجاء أو الحزن المتأثرة بها نفسه . هذه هى البواعث الأولى للفن وللأدب فى العصور الماضية ، وهى بعينها بواعث الفن والأدب الأولى فى كل عصر . زواج بين النفس والطبيعة يخلق فى النفس حالات من الوجدان تستحيل شعراً ، أو تستحيل موسيقى ، أو تستحيل نقشاً وتصويراً ، فإذا تطور الإنسان من حال البساطة البدوية إلى حال الحضارة ومركباتها ، تطورت كذلك حالات الوجدان ، التى تنطبع فى نفسه عن وحى الطبيعة المحيطة به ، من البساطة إلى التركيب ، ثم بقى مصدر الإلهام هو بعينه هذا الزواج بين النفس والطبيعة .

وإلهام الطبيعة الناس يختلف باختلاف أمزجتهم ، ومراكزهم فى الحياة ، وأحوالهم من الصحة والمرض والغنى والفقر ، وطبائع نفوسهم المتفاوتة بين الرضا والثورة وبين الطاعة والتمرد . فهذا الراعى الذى حدثتك عنه ، والذى أورد الدكتور نوفل غير قليل من أمره فى هذا الكتاب ، يختلف تأثره بالبيئة الطبيعية المحيطة به عن تأثر فارس كعنترة العبسى ، كما يختلف تأثر عنترة عن تأثر أمير مترف محب للهو كامرئ القيس .

أول شىء تتأثر به نفس الراعى هو الحرص على أن يسلم قطيعه من عادية الذئب والوحش ، وأن يجد المرعى الذى يكفى أغنامه . فإذا اطمأنت نفسه من هاتين الناحيتين ارتسمت الطبيعة فى خياله باسمة ولكن فى غير ضجة ، فكان صفيره أو كان غناؤه هادئاً مطمئناً . ذلك أنه يسبح بخياله على موج من هذا الهواء المطمئن حوله ، ويردد أنغامه فى معانى الرضا عن الوجود الذى بعث إلى نفسه الرضا . وكثيراً ما تراه فى هذه الحالات يذكر أياماً له سلفت عدا الذئب فيها على أغنامه ، أو أجدب المرعى من حوله ، فيصور ما أصابه لهذا أو لذلك من الأسى ، ثم يتسلى عن هذا وعن ذاك بجود الطبيعة عليه من بعد ؛ إذ هتن المطر فأنبت المرعى ، فولدت الأغنام فأعاضته عما نفق وعما أكله الذئب . ولعله لا ينسى فى أغانيه هذه كلبه الحارس الأمين ، وكيف ناضل الذئب فَنَضَله الذئب ، أو نضل هو الذئب وعاد إلى الراعى لا تروعه جراحه .

أما الفارس المقاتل فيختلف تأثره بالطبيعة وبأحداث الحياة . فهو لا يسير سيرة الراعى على

قدميه ، متوكئاً على عصاه يهش بها على غنمه ، مسلماً أمره إلى الأقدار المحيطة به ؛ بل هو يندفع مع قومه ممتطياً جواده ، يريد مجابهة العدو ومجابهة القدر معه ، ولذلك يختلف إلهام الطبيعة إياه ، ويختلف نظره لها . وهو لذلك أشد تعلقاً بجواده ، الذى يعاونه على مكافحة العدو ومكافحة ما قد تقيمه الطبيعة فى سبيله من العقبات ، منه بسائر ما يحيط به من الأحداث . ولذلك كان للجواد فى الشعر العربى مقام أكرم به من مقام ؛ وكانت صفة الجواد وحركاته وكل مظاهر حياته مما استأثر بالكثير من الشعر الحماسى فى الجاهلية ، وفى عصور الإسلام المختلفة .

وليس الجواد أداة قتال وكفى ، بل هو كذلك أداة زينة ، وأداة ارتحال للتجارة وللهو . ومن ثم كان له من القدر عند امرئ القيس مثل ماله من القدر عند عنترة ، ولذلك لم تكن صفته هى وحدها التى تعلقت بها عناية الشعراء ، بل كانت بين الشاعر وجواده صلة محبة تبدو فى حديث الشاعر عن هذا الجواد ، بل فى حديثه معه ، وشكره له ، واعتذاره عنده إن كان قد أجهده يسير أو سرى . وهذا طبيعى ؛ فالجواد يخوض مع الفارس المعامع ، ويبلغ المحب محبوبته ، ويقطع بصاحبه مختلف الأجواء فى البادية والحضر حتى يبلغ غايته .

هذه البيئة الطبيعية بفلواتها وجبالها فى البادية ، وبأنهارها وخضرتها فى الحضر ، وبإبلها وأغنامها وخيلها ، هى إذن مصدر الإلهام الأول للفن . وتأثر الشاعر تأثراً مباشراً بها ، وتعبيره عما ينطبع فى نفسه من آثارها عن شعور صادق لا عن محاكاة وتقليد — هو الذى يجعله أصيلاً فى إنشاء شعر الطبيعة . وهذه الأصالة هى التى استفتح بها الدكتور سيد نوفل بحثه عن شعر الطبيعة عند العرب .

ظاهر من بحثه أن هذه الأصالة لم تكن طويلة العمر ، بل سرعان ما انتقل الأمر فى التأثر بالطبيعة إلى المحاكاة والتقليد ولما تنته أيام الجاهلية ؛ فصار الشعراء جميعاً يقفون بالأطلال ، يبكون عندها ذكر الحبيب الذى ارتحل عنها ، كما فعل امرؤ القيس ؛ وصاروا يكررون المعانى التى سبقهم إليها المهلهل ومعاصروه فى الحماسة والفخر ؛ ووقف بهم الإلهام دون الأصالة فى التعبير عن معان تأثرت بها النفس إلى محاكاة ، إن لم ينقصها الاقتدار الفنى ، فقد نقصتها الحيوية النابضة التى تهزك بمعانيها أكثر مما تهزك بجرس ألفاظها وجمال قوافيها .

والمحاكاة والتقليد فى طبيعة الناس ، بل هما من طبيعة الأحياء جميعاً . ومن قوانين الطبيعة أن العناصر المتعادلة إذا امتزجت فى ظروف بذاتها أنتجت آثاراً متشابهة . والإنسان بعض ما تحتويه

البيئة الطبيعية المحيطة بالشاعر أو المصور أو الموسيقار. وإذا كان الحب بعض ما تثيره الطبيعة فى النفس من إلف الذكر للأنثى تخليداً للنوع ، وكانت آثاره لذلك متشابهة فى النفوس ، فلا عجب أن يكون حديث الناس عنه متشابهاً فى العصور للتباينة والأمم المختلفة . كذلك لا عجب أن يكون تأثر الناس بالطبيعة متشابهاً ، وبخاصة إذا كانت بيئة هذه الطبيعة التى يعيشون فيها هى هى بعينها . والبيئة العربية فى الجاهلية لم تكن مختلفة الألوان اختلافاً يثير من المشاعر والإحساس مايدفع إلى الابتكار المتصل تفيض به نفس الشاعر ؛ فلا تتكرر المعانى بعينها فى قصائده ، ولا تتكرر هذه المعانى فى شعر الشعراء على تعاقب الأجيال . والأمر كذلك بخاصة أن كان الشعر الجاهلى من وحى البادية أكثر مما كان من وحى الحضر . لهذا كان امرؤ القيس ، وكان عنترة ، وكان طرفة ، وكان زهير بن أبى سلمى ، وكان غيرهم من شعراء المعلقات يرددون المعانى المتشابهة من بكاء الأطلال وصفة الخيل والحديث عن المحبوب الذى ارتحل ؛ ولهذا نسج غيرهم على منوالهم ، ودفعهم إلى هذا ما طبع الناس عليه من محاكاة وتقليد ، كما دفعهم إليه أن ثقافتهم وبيئتهم جعلتا من هذه المعانى أسمى ما يرتفع إليه الفن فى عصرهم ؛ فأقوى الشعراء من يحسن التعبير عن هذه المعانى ، سواء أوحى إليه بهذا الإحسان قوة تأثره بالمعانى لذاتها وقوته من ثم فى أدائها ، أم أوحى إليه بالإحسان اقتداره الممتاز فى قوة الديباجة اقتداراً يجعله صائغاً بارعاً أكثر منه شاعراً ملهماً .

جاء الإسلام بحياة روحية جديدة كان لها فى النفس العربية أعمق الأثر . مع هذا لم تلهم الحياة الجديدة الشعر العربى ، ولم يظهر لها فيه أثر قوى واضح . أنت تلمس هذا الأمر فى العهد الأول ، وتلمسه إلى أن بدأت النزعات الصوفية تنقل بعض الشعراء من جو البيئة الطبيعية إلى جو وجدانى يكاد الاتصال بينه وبين الطبيعة ينقطع . أما إلى حين قامت النزعات الصوفية فقد ظل الشعر العربى جاهلياً فى تصوير الحياة ، بل لقد ظل أثر الأدب الجاهلى قويًّا فى الشعر العربى إلى عصرنا الحاضر ، وظل قويًّا فى البيئات التى تختلف أشد الاختلاف عن بيئة الجزيرة . صحيح أن كثيرين من شعراء العهد العباسى أمثال أبى نواس ثاروا بالمعانى الجاهلية ، وفى مقدمتها بكاء الأطلال . مع ذلك انتقلت هذه المعانى إلى ضفاف بردى ، وإلى ضفاف دجلة والفرات ، وإلى ضفاف النيل ، وإلى مغانى الأندلس ؛ ثم كان ما أبدعه الشعراء ، من جديد المعانى التى تلهمها الطبيعة فى هذه البلاد المختلفة ، غير متكافئ مع ما يجب أن يكون لهذا الإلهام من قوة ، وبقيت المعانى والصور القديمة تتكرر إلى جانب المعانى والصور الجديدة ،

وتكاد تطغى عليها .

ويرجع السبب فى هذا إلى أمرين . أولها أن أكثر الشعراء يرجعون بأرومتهم إلى أصل عربى يؤثر عليهم بحكم الوراثة ، ويجعل طبيعة شبه الجزيرة حية فى نفوسهم وإن بعدوا عنها ؛ والثانى أن الذين لا يمتون إلى أصل عربى قد درسوا اللغة العربية وتعلموا الشعر العربى على أولئك الجاهليين ومن أخذوا عنهم ؛ ولذلك انطبعت المعانى البدوية فى نفوسهم ، فلم يستطيعوا منها فكاكاً . وتستطيع أن تضيف إلى هذين السببين ما كان من ربط اللغة العربية بالدين الإسلامى ، على نحو أضفى على اللغة رداء من القداسة جعل الشعراء والكتاب يتقيدون أكثر الأمر بقوالب اللغة الأولى ، مخافة الغلو فى الإبداع غلوًّا يكون سيئ الأثر فى هذا الارتباط المتين بين اللغة والدين .

ولست أدرى أيستطيع الإنسان أن يرجع إلى هذه الأسباب سر ما نراه من شيوع الوصف فى الشعر العربى ، عند حديثه عن الطبيعة ، شيوعاً طغى على مناجاة الشعراء لهذه الطبيعة ، وسموهم بهذه المناجاة إلى امتثال ما فيها من معان أزلية خالدة ، وتجليتهم هذه المعانى فى شعرهم على نحو يملك على قارئهم كل مشاعره ؛ فيرتفع وإياهم إلى جو هذه المعانى ، ويحلق معهم فوق الصور والأشكال ، مأخوذا عنها بما يفيض عن الشاعر من أنغام تصور المثل الإنسانية العليا أبرع صورة وأروعها ؟ يعثر القارئ بجواب على هذا السؤال بعد أن يفرغ من تلاوة هذا الكتاب ، وبعد أن يرى تأثر الشعر العربى بالطبيعة فى البلاد المختلفة التى رف عليها لواء الإسلام .

ويعاون القارئ على العثور بهذا الجواب ما أورده الدكتور نوفل ، فى التمهيد للكتاب وفى خاتمته ، من مقارنات بين شعر الطبيعة عند العرب وعند غيرهم من الأمم ، وإن وجب علينا ، تحرياً للعدل ، أن نذكر ما انقضى من قرون بين شعراء العربية الذين تحدث الكتاب عنهم ، وشعراء الغرب الذين ضرب الكتاب ببعض مقطوعاتهم مثلاً لشعر الطبيعة عند الإنجليز أو عند الفرنسيين . ولا أحسبك مع ذلك تجافى الإنصاف إذا قلت بعد تلاوة الكتاب : إن روح الشعر العربى القديم ، فى الجاهلية وفى صدر الإسلام ، قد بقيت متسلطة على شعراء العربية فى الأمم المختلفة التى تكونت منها الإمبراطورية الإسلامية ، رغم اختلاف بيئتها عن بلاد العرب ، ورغم تعاقب الأجيال والثقافات التى فصلت بين ذلك العهد الأول فى شبه الجزيرة ، وبين ما كان فى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة .

وأقصد بروح الشعر العربى القديم هذا الروح البدوى الذى يجعل الفرد يرد كل ما فى

الوجود إلى ذاته ، وقل ما يفكر فى مجموع هو أحد أفراده إلا بقدر ما يفيد هو لذاته من هذا المجموع . فشعر الطبيعة فى العهد العباسى ، وشعر الطبيعة فى مصر أو فى الشام ، يطبعه هذا الطابع الفردى الذى يجعل من الشمس وطلوعها ومغيبها ، ومن القمر ومسراه ، ومن دجلة وبردى والنيل ، أسباباً للمزيد من المتاع المادى بالمحبوب ، أو بالخمر ، أو ما إليها من صور المتاع بالحياة . أما وحىُ الطبيعة المعانىَ العلوية فقليل فى هذا الشعر . وقد يكون هذا الأمر عجباً فى الشعر الإسلامى ، إن صح أن لا يشتد عجبنا منه فى الشعر الجاهلى . فحديث القرآن عن هذا الخلق العظيم الذى تتألف منه الطبيعة يجعل من الشمس والقمر ، ومن الليل والنهار ، ومن البحار والجبال ، ومن الوحش والطير والحيوان ، ومن سائر ما برأ الله ، أسباباً للتأمل فى الوجود والتماس سنة الله فيه . والصور العلوية التى ارتفع إليها أعظم الشعراء فى كل الأمم إنما كانت نتيجة التأمل فى هذه الآيات ، تأملاً يدعونا إلى مناجاتها والتماس أسرارها .

وبعد ، فهذه خواطر مما أوحته إلى تلاوة كتاب : (شعر الطبيعة فى الأدب العربى) .

وما أشك فى أن قارئه سيجد فيه مثاراً لخواطر ، ولألوان من التفكير طريفةٍ طرافَة البحث الذى عالجه الدكتور نوفل . والكتاب لهذا جدير بما أُضفَى عليه من تقدير ، جدير بأن ينشر أمام الباحثين ، فى الشعر العربى وفى الأدب العربى ، آفاقاً جديدة يكشف التعرض لها عن كثير من دخائل نفوسنا ، ويهدينا فى المستقبل إلى الجديد الذى نلتمسه .

محمد حسين هيكل